الجمـــال والأنوثة

بقلم سيد قطب

المدرس بمدرسة دمياط الابتدائية

الأنوثة عنصر هام أصيل فى المرأة ؛ ولكن « الأنثى » مع ذلك ، لا تساوى « المرأة » ، ولا تعنيها بالضبط ؛ لأن معناها يضيق عن معنى « المرأة » بقدر ما تضيق « الغريزة » عن شمول « الإنسانية » ورغباتها الفسيحة .

و« الأنثى » قد توجد حيث لا توجد « المرأة » ، وليس ذلك فى عالم الحيوان ، بل فى عالم الإنسان كذلك ؛ فكم من امرأة ليس لها من المرأة إلا الأنوثة ، وقد عدمت نصيبها من الصفات الأخرى ، التى تميزها من أناثى الحيوان .

على أن الحيوان لا يستوى فى هذا الباب أيضاً ، والأنثى فى كثير منه ، هى — فى الغالب — أكثر وأشمل من عنصر الأنوثة وحده ؛ ومطالب الحياة فيها ، لا تقف عند حد الغريزة ومطالبها ، بل تتعداها إلى رموز وآمال فى « الطلاقة » البعيدة عن « قيد » الغريزة .

***

وذكر الطلاقة والتقيد ، يتعجلنا الحديث عنهما قبل سواهما مما نحن فيه .

الغريزة قيد من قيود الحياة للأحياء ، تضمن به عدم تفلتهم من قضاء لباناتها منهم ، والمحافظة على ذاتها فيهم ! ولا ريب أن للحياة فى كل حى لبانة وغرضاً ؛ فهى حريصة على أن تبقى سليمة فيه ؛ وهى تتقاضاه أن يذود عنها فى نفسه ، وأن يحميها فى شخصه ؛ وأن يقوم بكل التمهيدات والاحتياطات التى تضمن لها البقاء والدوام .

وهى تزوده بالغريزة سلاحاً فى هذه المهمة ، وعناناً تشده به إليها إن هم بالفرار ، أو التفريط فيما وكلت إليه .

وهى تثقل فى هذه القيود ، كلما أحست فقر الحى من الأسلحة الأخرى ! وتتسامح فيها إذا رأت لديه عدة غيرها ، وقوة يستعيض بها عنها ، من فكر قوى ، أو إلهام سنى .

لذلك تثقل قيود الغريزة فى أنواع الحيوان الدنيا ؛ وتخف كلما صعدت فى درج الرقى ، حتى تصل للإنسان ، فتكون أخف وطأة ؛ لأنها تجد فى قوى التفكير والإلهام فيه ، ضمانا فى الكفاح ، فتعفيه من كثير من أسلحتها الساذجة وقيودها .

وليس أفراد الإنسان سواء بطبيعة الحال فى هذا الشأن ، لأنهم ليسوا سواء فى استعدادهم الفكرى ، ولا فى نفوذهم الروحى .

وكذلك تفرق الحياة بين نوعى الجنس الواحد ، على حسب نصيبه من أداء أغراضها ، وضرورته لها ؛ وما من شك أن الأنثى ألزم للحياة من الذكر ؛ ونصيبها من حمل أعبائها أكبر ؛ ولذلك فإن الغريزة فيها أشد وأقوى من الرجل ، لأنها أفضل الأسلحة فى نظر الحياة ؛ فهى لا تسمح للمرأة مثلا بالتفلت من الغريزة ، بمقدار ما تسمح للرجل ؛ ومن هنا كان الرجل أبعد نظراً ، وكانت المرأة أحذق عملا ؛ ومن هنا كذلك مال الرجل إلى التجريد والتعميم ، ومالت المرأة إلى المحسوس والواقع ، فهو عادة يبحث عن القاعدة وهى عادة تلتفت للمثال . ذلك أن الغريزة عملية واقعية ، والعقل نظرى خيالى بالنسبة لها .

* * *

ونترك هذا المبحث — الذى يتسع لكلام كثير — إلى مبحث آخر يتصل بموضوعنا الأصيل ، ذلك هو « الأنوثة والجمال » .

فالأنوثة قوة — ولا شك — كما أن الجمال قوة . ولكنا نعتقد أنهما قوتان مختلفتان فى طبيعتهما ؛ فالأولى قوة من قوى « الضرورة » المقيدة ؛ أما الثانية فهى قوة من قوى « الحرية » المطلقة ؛ والأولى ملتصقة « بالواقع » الساذج . والثانية متطلعة إلى « المستقبل » المرموق .

وأحب أن أؤكد هذا المعنى ؛ لأن الكثيرين يخطئون فى إدراكه ، فيحسبون الأنوثة والجمال فى المرأة قوتين ترميان إلى غرض واحد ، وترمزان لمعنى واحد .

ويرجع هذا الخلط إلى تلبس الواحدة منهما بالأخرى فى المرأة غالباً ، وصعوبة التفرقة بينهما فى معظم الأنظار ؛ كما يرجع كذلك إلى طغيان النظرة الغريزية عند اختلاف النوع ، على النظرة الفلسفية ، فقد تصطنع الغريزة جمالا غير موجود ، وتعير النوع الآخر زينة ليست له ، لتنال بذلك لبانة خاصة ؛ والدليل على هذا الاصطناع والإعارة ، أن ذلك الجمال الموهوم ، مايلبث عند هدأة الغريزة أن يزول ، ويطلع الإنسان على الحقيقة التى حجبتها عنه غمرة الغريزة وضرامها .

أما الجمال فقوة هادئة حقيقية ، وكثيراً ما تبدو مجردة عن الغريزة ، وأدلة ذلك يجدها الإنسان بسهولة فى جمال الطبيعة الصامتة ، وفى عالمى الطير والحيوان ، كما يستشعرها الرجل فى الرجل ، والمرأة فى المرأة . وفى هذه الأحوال جميعها ، لا أثر للغريزه ولا اصطناعها .

ويستطيع الرجل كذلك أن يحس الجمال المجرد فى المرأة نفسها ، ولكن هذا يحتاج إلى قدر كبير من العقلية الفلسفية ، التى تستطيع التحليل والتجريد ، إلى مدى بعيد .

وما من شك فى أن المتعة الفنية بالجمال فى المرأة ، أرقى وأعمق من المتعة الغريزية بالأنوثة فيها . والحياة التى خلقت الغريزة قوة تحافظ بها على الواقع المقيد ، خلقت الجمال قوة تدنيها من المستقبل الطليق .

سيد قطب